قرأت العدد الماضي من "الآداب"

القصائد

نزيه ابو عفش

مما يلفت النظر ،في معظم الدوريات الثقافية العربية ، تلك الكثافة المدهشة في عدد القصائد ـ او ما هو شبيه بالقصائد ـ التي تكاد تنفرد بالنصيب الاكبر من مساحة الفاعليات الادبية والفكرية، الى درجة تصعب معها اية محاولة هادئة لتقصي ما في هذه القصيدة او تلك من عناصر وايماضات ذات قيمة ما .. دون الوقوع في شرك الاحكام العصبية وردود الافعال السريعة ، المطرفة احيانا، ازاء ما تزخر به القصائد الاخرى من غثاثة وفقر حسي وتفكك في البناء ومفارقات فكرية مضحكة ، تدفع بنا الى جملة من التساؤلات الاولية المكرورة :

ـ هذا الاقبال السهل على كتابة القصيده الحديثة .. ما هي اسبابه ؟ وكيف يمكن ، في هذه الحالة من الغياب الفاضح للنقد الادبي الجاد ، كيف يمكن تفسيره وتنظيم ضوابطه ؟!

ـ ما الذي يميز قصيدة ما لهذا الشاعر عن قصيدة اخرى لسواه من الشعراء ؟ وبالتالي ما الذي نفتقر اليه هذه القصيدة حتى يمكن التعامل معها كعمل شعري مثير وناضج وذي شخصية ، اذا كانت هذه القصيدة او تلك تمتلك لغتها السليمة واوزانها ومضامينها الانسانية التي قد لا نختلف حول سلامتها ! ! مع ذلك يظل الشعر غائبا ... مفقودا .. ومنتهكا ايضا .

في العدد الماضي من الاداب عدد من القصائد المتفاوتة في قيمتها وقابليتها انتمائها الى الشعر ، مطابق تماما لجميع ما في العدد من قصص وابحاث ودراسات نقدية ! ! بينها ، على الاكثر ، اربع او خمس قصائد تمتلك المستوى الجيد لعافية الشعر واكتمال ادواته الفنية .

عبدالخالق الركابي في قصيدته ((بيروت)) يفصح عن امكانات شعرية جيدة حاول توظيفها في شكل بنائي مرتبك ، تتوضح لجلجلته في الجمل المركبة ذات النفس الطويل، بحيث تتحول كل جملة الى مقطع مستقل يكاد يكون قصيدة بحد ذاته ، ان قصيدة ((بيروت)) ـ على الرغم من وقوعها في ظل سعدي يوسف ـ تظل قصيدة جيدة تنقصها لمسة ما حتى تتحول الى قصيدة ممتازة لها سحرها الخاص ودلالاتها الانسانية البالغة الحدة والكثافة :

لم تكن غير قديسة باركت ـ عندما طرقت بابها الحرب واستفردتها البنادق مسعورة ـ موت ابنائها الشهداء .. أما في شوارعها ف :

ثمة قتلى يمدون اذرعهم يومئون لنا كلما ابتردت صخرة الليل واخضل وجه انتظاراتنا بالدماء ..

انها هكذا .. بيروت القاتلة ، المنتهكة ، المفتوحه للصوص .. ولكن :

ابوابها الالف مرصودة باسم ابنائها الفقراء .

اما علي الخليلي في قصيدته (الى جنوب لبنان) فلم يمكن من زعزعة المناخ الجاف للقصيدة واضفاء اية روح ابداعيه عليها .. بحيث ظلت قصيدة عملا انشائيا لا تكاد تنبثق فيه اية بارقه شعر حقيقية مثل : في فم كل بندقيه رأيت وردة ـ في فم كل وردة رأيت بندقيه فمن رأى حبيبتي ..

او : البنادق تنقد نكهتها والذي يقتل الفقراء يقاسمني كسرة الخبز ـ يفضحني في سكوت الرياح العتيقة ..

اقول : لا تكاد هذه الاضاءات المدهشه تظهر حتى تقتلها محاولات التصنيع المفرغه من الحياة ! ! ان كل ما في هذين المقطعين من توهج حسي وغنى في الطاقة الابداعية وسيطرة على الادوات .. كل ذلك لا يلبث ان يخمد فجاة تحت وطأة المحاولات التركيبية مثل :

يا صحوة الظل يا نكهة البندقيه .. الخ ،

شوقي بزيع ، الشاعر الجنوبي العذب ، لم يتمكن في (اغنيات العاشق الاخير)ان يتحرر من سطوة مظفر النواب : في الليل قبيل سقوط المرأة في الحلم .. انخ. الا انه لا يلبث ان يفرض صوته الخاص المليء بالثقة :

ودعي جسدي فنديلك في هذا الليل فان جاءك من جهة البحر دمي فاشتعلي كفراش الماء على الاغصان .

مع ذلك .. لم يستطع الشاعر شوقي بزيع في المقطعين السادس والسابع من القصيدة الا ان يذكرنا بتوليعات ادونيس الحرفية المثقله بالافتعال الشكلي وتعقيدات الصنعه .

لعل تفاحة خليل خوري الحامضة تكاد (كقصيدة الشاعر هاشم شفيق) تقف ـ لا في طليعة قصائد العدد فحسب ـ بل وفي المقدمة مما ينشر من قصائد في الصحف والمجلات العربية . وخليل خوري الذي فاجأنا بصوته الساحر منذ (صلوات للريح) و(لادن في الصدف) ما يزال قادرا على تاكيد اصالته الشعرية وتطوير ادواته الابداعية، حيث سيطر عليك منذ اللحظة الاولى .. يترك في قلبك مثل ما تترك هيلين :

... ان هيلين تترك في القلب شيئا له طعم اغنية مرة .وهيلين مذبحة القلب .. وهذي الخفافيش تاوي الى القلب كل مساء .

وتتكاثف المشاعر الدرامية حتى تبلغ ذروة احتدامها وتالقها .

وهبني انتصرت ، انتقمت ، سبيت ، قتلت استبحت ..

ولكن في القلب شيئا ، ـ وسوف يظل ـ له طعم اغنيه مرة .

وببساطة لا نظير لها ، بامتلاك وسطوة لا حد لهما ، يطلق خليل نداءه المأتمي الفاجع كمجزرة .. الشديد الهدوء كتنفس طفل:

ان في القلب فصل خريف ـ ان نفسي حزينة ـ ان هيلين فجر تلطخ بالدم ، طير حمام جفاعشه واستميل الى غيره ـ .. وهيلين ما يترك الليل في حانة من بقايا السكارى وهيلين .. آه هلين .

واذا كان خليل خوري ، كعادته ، قادرا على تقديم نفسه كشاعر ممتاز .. فلا شك ان هذه القصيدة بالتالي قادرة على تقديم وجه جديد للشاعر الذي ما نزال نرجو الا يصمت .

قصيدة احمد يوسف داود (الى اللقاء .. سافوي) ليس من السهل التكلم عنها ضمن هذا السياق الكثيف احيانا .. الفضفاض احيانا اخرى .. الا ان ما يلاحظ فيها ، للوهلة الاولى ، ان بصمات محمود درويش ما تزال ضاغطة في اماكن كثيرة من القصيدة ،اضافة الى بعض المقاطع المثيرة ببرودتها وعقلانيتها غير المبررة :

كان في نسمة الليل وخز .. وعلق موسى
ـ لماذا يقولون آذار اقسى الشهور ؟؟

وموسى (كما يشير الشاعر في حاشية القصيدة) هو الفدائي الذي أسر بعد عملية سافوي و (آذار أقسى الشهور) عن البوت في مطلع الارض الخراب .

ان ما يثير التساؤل ويدعو الى الدهشة ان يكون لدى موسى جمعة متسع من الوقت وأسترخاء الاعصاب لتذكر ما قال اليوت عن قسوة شهر آذار وعلاقة ذلك بالشهر الذي تمت فيه عملية سافوي !

قصيدة الفريد سمعان (استثناء) مشحونة بكل (لهاث الارض) لكثرة ما فيها من جفاف صناعي وانكاءات فجة على محاولات الشعراء التجريبيين من تداخلات في الاصوات ، وتعب يصل حد الارهاق في بناء الجملة .. بحيث جاءت القصيدة مفككة جافة .. مفتقرة الى ادنى مستويات الحس الفني . اما (قرار) الدكتور وصفي صادق .. فهي عبارة عن محاولة انشائية تذكر برأي الياس ابي شبكة في الشعر اذ يقول « الشعر يجيء مرتديا زيه الكامل » اما هنا فنحن امام قصيدةلا تكاد ترتفع عن مستوى المقولات الذهنية التي لا زي لها .. لا حرارة فيها .. وليست من الشعر .

وما يقال عن (القرار) يصلح قوله عن قصيدة علي بدرالدين (خارطة الرعد) فهي الاخرى محاولة شكلية قد يكون فيها كل شيء ما عدا الشعر .. اضافة الى ما فيها من الحشووالتراكيب اللفظية من مطلع الجملة الى نهايتها بدون اية مبررات فنية ! هذا الاهمال الفظ لتفاصيل البناء الشعري في القصيدة هو المقتل الاساسي للكثير مما نقرأ ونسمع من الشعر بحيث يتحول هذا الاهمال، الناتج عن استسهال كتابة القصيدة الحديثة ، الى ورقة اتهام « محقة » في ايدي متيري حملات الاتهام والتشنيعات البذيئة على النثر الحديث عامة .

في زحمة هذه الاسماء .. نجيء قصيدة الشاعر هاشم شفيق (ثلاث حالات عن دخول المملكة) التي تعتبر عن جدارة قصيدة قصائد الاسماء الجديدة التي تتردد في الآداب بين الفترة والاخرى . وعلى الرغم من ان هذه القصيدة هي الوحيدة مما قرأت من انتاج الشاعر هاشم شفيق ، فهي بدون ادنى شك من القصائد القليلة القادرة على الافصاح عن نفسها ببساطة لا تداخلها الصنعة .. بحيث تضع قارئها مباشرة امام حالة شعرية نامية « مرتدية زيها الكامل » دون اية زخارف ونتوءات مما تزخر به قصائد شعراء الجيل الجديد :

تدخلين كما يدخل النوم في غرفتي ..
.. فيرن دمي ـ ان جلدي يرن ـ وكذا النورس العذب حين يلامس نهرا يئن ـ

هذا الاتساق الساحر بين موسيقى القصيدة وايقاعاتها الداخلية ومضامينها .. يكاد يكون ابرز عناصرها ، وبالتالي فهو العنصرالذي تفتقده اعمال كثيرة لشعراء بارزين :

... واحلم بالمقصلة ـ وارى غابة شالها الفجر والطير تاوي اليها المنابر مكتظة بالنشيد ـ وفي كل جنح نجوم مبللة مثقلة ـ وارى هدهدا ...

على هذا النحو من التدفق العفوي تتحرك القصيدة مؤكدة حساسية الشاعر المتفوقة وتعامله الواثق مع ادواته وما يريد قوله، دون لجوء الى الخطابة والادعاءات .. والاحتيالات الشكلية التي ترهق كاهل قصائد سواه من شعراء العدد ، بحيث لا نجد مفرا من اعادة التساؤل :

كيف يمكن للقصيدة ان تكتب ؟ وبالتالي اية روح تلك التي تحل في جسم القصيدة فتجعل منها شعرا ؟.. ثم الى متى سيسود الاعتقاد بسهولة كتابة القصيدة الحديثة .. بسهولة التعامل معها .. بسهولة احلال تلك الروح التي نسميها عادة شعرا ؟

دمشق

دار الآداب تقدم

امرأتان في امرأة

رواية بقلم

الدكتورة نوال السعداوي

صدرت حديثا